سعادة
مهاجر زيان

رئيس المفوضية
الأوروبية للمراكز
الإسلامية الاتحاد
السويسري.

سعادة مهاجر زيان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل الله على جميع الأنبياء والمرسلين، وبعد فإن

في البدء كانت الكلمة ..

وما أحوجنا إلى أن تكون حسب فهمنا ونظرنا كلمة: "الأخوة الإنسانية"

التي جمعت الأنبياء والرسل أولا .. لتجمعنا نحن كلنا جميعا بني البشر ثانيا..

ولا بد من ضبط المفهوم عند جميع المؤمنين..

فنحن أهل الإسلام، بعضنا يعتبر جهلا منهم أنه لا وجود لأخوة خارج الإطار الديني الضيق، فيعترفون بأخوة الإيمان فقط. ودليلهم:

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...﴾[الحجرات:10]، ،
- وقوله عن المؤمنين: ﴿...فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...﴾[آل عمران:103]
- وقول الرسول ﷺ: "المسلم أخو المسلم"[رواه البخاري ومسلم]

نحن نتفق معهم بأن الأخوة الدينية القائمة على الإيمان، أنها أعمق أنواع الأخوات. ففي سلفنا الأول فاقت هذه الأخوة أخوة النسب والدم. وأذابت كل الفوارق بين الناس،

من عنصرية ولونية وإقليمية ولغوية وطبقية، حتى تحقق فيهم وصف النبي ﷺ (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما.

هذا صحيح لكن مع ذلك أن هذه الأخوة على قدرها ومكانتها في ديننا، لا تمنع من وجود أنواع أخرى من الأخوات. مثل الأخوة الوطنية أو القومية أو الإنسانية. والدليل على ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى:

- ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء:105-106].
- ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:124-123].
- ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 142-141] .
- ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء 161-160].
- ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف:85، هود:84، العنكبوت: 36].

فكل هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم وكفروا بهم، ومع هذا عبَّر القرآن عن علاقة رسولهم بهم بأنها علاقة الأخوة ﴿قال لهم أخوهم﴾. وذلك لأن هؤلاء الرسل كانوا منهم، ولم يكونوا أجانب عنهم، فتربطهم أخوة قومية وإنسانية.

فهذا يدلنا على أن الأخوة ليست دائما إيمانية فقط، بل قد تكون وطنية أو قومية، أو إنسانية أو غيرها. قال عليه الصلاة والسلام في التعبير عن الأخوة الإنسانية الجامعة: (و أشهد أن العباد كلهم أخوة). فعن زيد بن أرقم قال: سمعت رسول الله ﷺ يدعو في دبر كل صلاة يقول: (اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك الرب، وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسوك، اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي والطبراني.

وإذا ثبتت الأخوة الإنسانية ، فقد ثبت ما تقتضيه وتستلزمه من المساواة والتضامن، إذ لا معنى للأخوة بغير هذا.. وإعمال هذه الأخوة والحفاظ على رابطتها واجبنا ومسؤوليتنا جميعا و كلنا نتحمل مسؤولية إهمالها و إلغائها بحسب مكانة كل واحد منا في المجتمع و قوة تأثيره، والإمام علي رضي الله عنه عندما ولى مالك بن الأشقر ولاية مصر، و مصر كان فيها المسلم وغير المسلم قال له : «وَاشْعِرْ قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم؛ فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك ! وقد استكفاك أمرهم، وابتلاك بهم» - علي بن أبي طالب، نهج البلاغة.. .

فكيف السبيل لإعمال هذه الأخوة الإنسانية والحفاظ عليها بما يحقق العيش المشترك، والتسامح الديني، والسلام الأهلي والمجتمعي بيننا جميعا..

هذا هو الفهم السليم الذي يجب أن يكون جزءا من خطابنا ومن لغة تواصلنا على منابر الخطابة والوعظ والإرشاد؛ بل والتدريب والتكوين..

وحتى يكون الأمر كذلك وعلى أفضل وجه وأحسنه.. أرى أنه لا بد من بعث ونشر أركان أساسية لهذا الفهم.. أركان تحقق الأخوة الإنسانية في صورتها الجميلة والنبيلة انطلاقا من تأكيد مكانة الإنسان عند الله.

ونجد ما ذكره البابا الراحل يوحنا بولس الثاني في "كادونا" النيجيرية في فبراير 1982، عندما تحدث إلى رجال الدين المسلمين هناك قائلا: (جميعنا مسيحيون ومسلمون نؤمن بإله واحد خالق الإنسان، ونعترف بسلطانه وندافع عن كرامة الإنسان كخادم لله، وأننا جميعا نعبد الله ونسلم أمرنا إليه تسليما كاملا)؛ فالإنسان مخلوق مكرم، خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وميزه بالعقل، علمه الأسماء، سخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه ليحقق مهمة عبادة الله وعمارة الكون والحياة، باستحضار القيم والأخلاق.

فيتحقق "الاستخلاف" أي خلافة الله في أرضه. وفق أساس "السلام" وهو الأساس الذي تبنى عليه العلاقة بين بني البشر جميعا.. الله هو السلام، وتحيتنا السلام، والجنة دار السلام.

وقد وضع السيد المسيح الأساس لهذه الأركان ولخصها في ركن ذهبي: "افعلوا للناس ما أردتم أن يفعله الناس لكم" (متى 12 /7) وفي موضع آخر: "كما تريدون أن يعاملكم الناس فكذلك عاملوهم" (لوقا 31 /6) ويضيف: "هذه هي الشريعة والأنبياء" أي القاعدة المثلى وخلاصة الدين.

فالمسؤولية المشركة بين الجميع دون استثناء، في تحقيق الأخوة الإنسانية وفق أركان أراها أنها أساسية يمكن جعلها ركيزة للوصول إلى الهدف والمقصد المنشود؛ وهذه الأركان يمكن إجمالها كالتالي:

1) الركن الأول: الإيمان بوحدة الأصل الإنساني:

فمن المعاني التي قالها النبي محمد ﷺ في خطبته الأخيرة، خطبة حجة الوداع؛ روى أحمد عن أبي نضرة : حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت ؟) قالوا : بلغ رسول الله ﷺ." صححه الألباني في "الصحيحة" (199/ 6).

فأصل البشرية ينتهي بالعبودية لله ربا وإلها، وبالبنوة لآدم عليه السلام. قال عليه الصلاة والسلام (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد) أخرجه أحمد في مسنده وإسناده صحيح.

فشعور المسلم بأخوته لبني البشر كلهم، عقيدة يدين لله بها، إنها تأتي بعد توحيد الله، والإقرار برسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

كان رسول الله ﷺ يدعو في دبر كل صلاة يقول: (اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك الرب، وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك،

اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة). رواه الإمام أحمد وأبو داوود عن زيد بن أرقم.

المسلم الذي يرطب لسانه بهذه الأذكار خمس مرات في اليوم كيف يكون تفاعله وشعوره بالأخوة الإنسانية، وكيف تكون في ضميره ووجدانه و قلبه و روحه؟ إنه شعور الحب والإخاء للناس جميعا ..

المسلم يحب الناس جميعا؛ لأنهم إخوانه في الآدمية، جمع بينه وبينهم رحم ونسب؛ أما الرحم العامة فقد قال فيها ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: 1]

كلمة «الأرحام» هنا يراد بها الأرحام الإنسانية التي تصل بين الناس جميعا، سياق الآية. وفاتحتها يدل على ذلك.

2) والركن الثاني في تحقيق الأخوة الإنسانية: الكرامة الإنسانية.

أي الكرامة لمطلق بني البشر، بصرف النظر عن الاختلاف في الدين أو اللون أو الجنس أو اللغة.. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء:70] . وجعل من آثار هذا التكريم أن الإنسان سيد في هذا الكون، سخرت له هذه الكائنات، قال الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:34-33].

الكرامة لبني البشر تقتضي أن نحافظ على الإنسان، نحافظ على وجوده، نحافظ على دمه فلا يقتل ولا يهدر دمه، نحافظ على عقله، ليؤدي رسالته، نحافظ على عرضه حتى لا ينتهك، نحافظ على ماله، نحافظ على سكينته وطمأنينته، فالكليات الخمس جاءت لتعمق هذا المعنى و ترسخه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ

عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء:70].

فالإيمان بكرامة الإنسان، أيا كان دينه أو جنسه أو لونه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الاسراء:70] وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية.

ومن الأمثلة العملية في ديننا: ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله: أن جنازة مرت على النبي ﷺ فقام لها واقفا، فقيل له: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي! فقال: "أليست نفسا"؟! بلى ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان، فما أروع الموقف، وما أروع التفسير والتعليل!

3) الركن الثالث الإيمان بأن الاختلاف سنة كونية :

في أساس العلاقة بين بني البشر، أن الاختلاف في العقائد، في الأديان، في اللغات، في الأجناس، في الأوطان، في الأعراق سنة كونية واقعة بمشيئة الله وقدرته ولا معقب لقضائه ولا رادَّ لحكمه؛ هكذا أراد الله، هكذا هي سنة الله في كل الكون، اختلاف الثمرات اختلاف الألوان، وكذلك البشر قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:22]، هذا المسؤولية المشتركة لتحقيق الأخوة الإنسانية؛ الاختلاف بين بني البشر لا يقف عند حد اللون أو البشرة أو الجنس أو اللغة، وإنما يتعداه إلى العقائد. وإذا كان هذا الاختلاف سنة من سنن الله في كونه فلا يمكن أن نجمع الناس على رأي واحد، ولا على مذهب واحد، ولا على فكر واحد، وإنما علينا أن نجعل ثمرة لهذا الاختلاف.

فالاقتناع بأن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى، وهو الذي منح هذا النوع من خلقه: الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع:

- ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:29]؛
- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود:118]، يحقق لا محالة الأخوة الإنسانية التي ندعو إليها و نؤمن بها و نناضل من أجلها..

واليقين أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم

الناس ذلك أو جهلوه، ولهذا لا يفكر المسلم أو أي متدين يوما أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين أو على دينه، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:118].

4) والركن أو المبدأ الرابع في تحقيق الأخوة الإنسانية: التعارف

أو ما يعرف في نصوصنا ب"لتعارفوا"؛ قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا... ﴾ [الحجرات:13] ؛ أي ثمرة هذا الاختلاف كما قال الله تعالى: (لتعارفوا) لا لتناكروا، لا لتحاربوا، لا لتصادموا.. و معنى كلمة لتعارفوا:

- ليعرف بعضكم بعضا.
- لتبذلوا المعروف والمصالح كثمرة لهذا التعارف.
- لتحصلوا العلم والمعرفة ثمرة لهذا التعارف.

ولذلك البشر يتحركون في أرجاء الأرض، يسافرون يسيحون، يتعرفون على الأجناس وعلى المجتمعات يعرفون الثقافات ويستفيد بعضهم من بعض، كما استفاد المسلمون الأوائل من قبل من حضارة فارس والروم أخذوا منهم تدوين الدواوين وصك العملة ونظام البريد، وأخذ الأوروبيون من تراث المسلمين وعلومهم في الأندلس.

هذا ما يسمى بالتفاعل الحضاري، والتفاعل الثقافي ثمرة لهذا التعارف.

إذا الاختلاف لا ينبغي أن يكون سبيلا لإشعال الحروب والفتن، والدمار والخراب الذي يهلك الحرث والنسل ويأتي على الأخضر واليابس، وإنما يكون الاختلاف ثمرته التعارف وبذل المعروف وحصول المعرفة.

5) الركن الخامس: الحوار بالحسنى أو الجدال بالتي هي أحسن :

إن السبيل لبيان الحق الجدال والنقاش والحوار بالتي هي أحسن مع المسلمين وغير المسلمين. لأنه إذا كان هناك اختلاف نحتاج إلى أن نتحاور:

- فهل نتحاور بالعصا ؟ هل نتحاور بالقوة ؟ أم أن الفكرة تعارض بالفكرة والرأي بالرأي؟

قال الله تعالى عن الخلاف الذي يقع بين المسلمين في فروع الدين و جزئياته في بعض القضايا البسيطة: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: 125]؛ لأن القدر المشترك بينهم كبير فاكتفى بالموعظة الحسنة؛ حوار يكون بالموعظة الحسنة.. حوار يلامس القلوب وينير العقول ويهدي إلى السكينة ويحقق الطمأنينة، ثم تحدث عن حوار في الدائرة الأوسع: مع غير المسلمين هنا لم يكتف بالحسنى؛ وإنما اشترط فعل الأفضل والأجمل والأتقن والأجود والأحسن؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾[العنكبوت:46]؛ بالتي هي أحسن وأفضل.. وليس بالتي هي أخشن، نحن لا نكره الناس على الدخول في الدين، إن الإيمان لا يتأسس على الإكراه؛ قال الله تعالى ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:256].

إنما الإيمان يتأسس عبر القناعة وعبر الإيمان وانشراح الصدر وهذا يقتضي أن نسوق الحوار في بيئة صحية معافاة، ليس فيها تجريح، ولا سباب قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:108] وإنما يكون عبر الجدال بالتي هي أحسن؛ فهذا أساس يؤسس للعيش المشترك والله تعالى جعل رسالة نبيه محمد ﷺ ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:21-22]. ﴿...إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ...﴾ [الشورى:48].

الهداية بالبيان والبيان الحسن كما قال الله تعالى: ﴿...وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا... ﴾ [البقرة:83]. قالوا للناس -مطلق الناس- حسنا. وفي المعايشة والمخالطة نجد النص صريحا: (وخالق الناس بخلق حسن) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.، مطلق الناس، وهكذا؛ هذا مهم أن تكون المجادلة بالتي هي أحسن.

ثم بعد ذلك الله تعالى هو الذي يملك أن يجعل الإيمان يترسخ في القلوب أو غير ذلك ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:99]؛ إنما مهمتنا البلاغ ومهمتنا القدوة الحسنة.

هذه المعاني أو الأسس والأركان هي التي تأسس للفهم الصحيح المعتدل الوسطي في

تحقيق الأخوة الإنسانية مع الجميع مطلقا .. وليس فقط لكونهم مسلمين..

أرجو أن نتعاون في نشر وترسيخ الفهم الصحيح للأخوة حتى تتسع دائرتها لتكون الأوسع بالأخوة الإنسانية .. فكلنا لآدم عليه السلام.. وكلنا مسؤول على تحقيق الأخوة الإنسانية.

والله ولي التوفيق